التصوف قديماً وحديثاً

كلمة صوفى

أعربية هى أم يونانية ؟

قدمنا فى جزء يوليو القول على هذه الكلمة ، وقررنا بأن ثمة خلافات عدة ، وأوجها تسعة فى اشتقاقها . وقد بحثنا الوجهين الأول والثانى منها فانتهى بنا البحث الى تخطيئهما لغة . وها نحن نأخذ فى تبيان الأوجه الأخرى مبتدئين بالوجه الثالث

— ٣ —

أما القول الثالث فيرى أصحابه أن الكلمة مشتقة من (الصف) حيث يعللونه بقولهم (إنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل بارتفاع همهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه) والناقل لهذا هو الأستاذ السهروردى ، فى كتابه « عوارف المعارف »

وأود قبل مناقشة هذا الرأى ، وقبل التدليل على خطأه ، أن أبرىء الأستاذ السهروردى من تهمة الأخذ به ، وأقول تهمة فلا يدهشن القارىء من ذلك اللفظ ، فان المعنى بقدر ماله من جلال وروعة ، لا يتفق والحق إن شرعا وإن لغة فى شىء . وما دام الأمر كذلك وهو ما سنوضحه بعد فأنه يصبح خطأ مردوداً

قررنا أن هذا خطأ من ناحيتين : دينية ولغوية . وما كنت لأتكلم هنا عن الناحية الدينية ، فلهذه مكانها من البحث . لكنا مضطرون إلى الألماع بألماعة يسيرة نزيل بها الشك من تلك الناحية أيضا ، ولتكن إثر الناحية اللغوية

أما خطأ النسبة لغة فظاهر البطلان لا يحتاج فى نقضه إلى دليل ، إذ اشتقاق الصفة من الصف « صفى » لا « صوفى » ويجوز أن تقول « صاف » وهذا الأخير نادر والنادر كما هو معروف لا حكم له ، ولم يذكره إلا أبو عبيدة وحجته فى ذلك احتمالية أقامها من

قوله تعالى « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا » قال أبو عبيدة يحتمل أن يكون مصدراً أو أن يكون بمعنى الصافين » أضف إلى هذا أن المعروف عند علماء التفسير هو أن الصاف الملك . قال تعالى « والصافات صفاً » أى الملائكة المصطفون فى السماء يسجدون لهم مراتب يقومون عليها صفوفا كما يصطف المصلون ..... وفى التنزيل « اذكروا اسم الله عليها صواف » أى مصفوفة .

نحكم إذن ببطلان هذا الرأى بعد الذى قدمنا ، وكذا حكم ببطلانه وإهماله كثيرون على رأسهم الشيخ السهروردى ، وننكره كما أنكره العلامة ابن تيمية والحافظ ابن الجوزى وغيرهما

بقيت الناحية الدينية ونحن نقرر خطأ ذلك الرأى من تلك الناحية أيضاً . وهذا راجع إلى ما يلاحظ من معناه ، وهو تفضيل الصوفية على غيرهم من بقية البشر ، وذلك بجعلهم فى الصف الأول بين يدى الله . وهذا كلام لا تقوم عليه حجة شرعية ولا يؤيده دليل عقلى . فان الاسلام ، بل وكل الأديان ، لا تفضل إنساناً على آخر بغير العمل الصالح ، وليس بذله أو فقره ، ولا بماله أو جاهه . ولا أدل على صحة ما نقول من قول الله تعالى فى كتابه الكريم « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم » ويقول النبى صلى الله عليه وسلم « لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربى على أعجمى إلا بالتقوى أو عمل صالح » وكان رسول الله يقول لابنته وسيدة النساء السيدة فاطمة الزهراء « يا فاطمة يا بنت محمد ! اعملى لا أغنى عنك من الله شيئاً » وقديماً شفع نوح عليه السلام لابنه فلم يجبه الله إلى شفاعته لأن ابنه كان غير صالح وفى هذا يقول الله تعالى فى محكم آيه « ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ، قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح »

بهذه التعاليم العالية وتلك الأسس القيمة كان مجد الاسلام وكانت عظمته ، فان هذه القاعدة الجليلة وأعنى بها قاعدة المساواة هى من أعظم الأصول وأمتن الأسس وأقوى الدعامات التى قام عليها الاسلام ، والتى جاء بها ليمحو السلطة الروحية التى كان يدعيها ذوو الأباطيل والترهات والتى كان يشهرها رجال الدين فى وجوه مخالفيهم فى الرأى أو المعتقد ، والتى طالما ساموا الشعوب الخسف بها ، وألبسوهم بواسطتها لباس الذلة والمسكنة

بهذه القاعدة الجليلة بطل ماكان للرؤساء والروحانيين من مزاعم فى احتكار السلطة الروحية وتوريثها لذويهم بغير حق ولا صلاح . فصار ميزان التمايز الأعمال الصالحة لا المراسم الشكلية من صفوف أو غير ذلك من أشكال وألوان . ولقد جاء خلفاء الاسلام مؤيدين لهذه القاعدة ، فكان أول خليفة للمسلمين يخطب الناس ويقول « ياأيها الناس قد وليتكم ولست بخيركم ولقد وددت أن واحداً منكم قد كفانى هذا الأمر فلو وجدتم فى اعوجاجا فقوموه »

نعرف من كل ماتقدم أن ادعاء من يدعى نسبة الصوفى الى الصف بجعله فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل — إدعاء باطل شرعا . ولا يفوتنا أن نقول بأن هذه الصفوف أمر متمم لأقامة الصلاة عملا بالحديث الذى يقول « سووا صفوفكم فأن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة » ولا يفوتنا أيضا أن نقرر بأن معرفة درجة الصوفى من الصفوف الأخروية أمر لا يعلمه غير الله وحده . وكل الذى نعرفه والذى علمه من قبلنا هو أنه لوصح التفضيل لكان لأبى بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لعمر كما تواتر ذلك عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ثم لبقية الصحابة والتابعين وأهل الشورى وغيرهم . ولقد قال الله تعالى فى كتابه الكريم « لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى » وقال أيضا « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بأحسان »

فأين كان الصوفية وقت فتح مكة وهو ما نزلت الآية لسببه أو زمن المهاجرين والأنصار ولم يعرفوا أو تعرف فرقهم إلا فى القرن الثالث ؟ الحق أنا كلفنا أنفسنا كثيرا فى الرد على هذا الزعم الباطل ولكنا نعمل مانعمل فى سبيل نفى ذلك الشين عن الأسلام ، على أنه لا يفوتنا أن نخاطب أولئك الذين يزعمون لأنفسهم صفا بقول إمام من أئمتهم وأعنى به محى الدين بن عربى حيث يقول فى هدم مثل ذلك الزعم :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى ... إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لاوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب دينى وإيمانى

— ٤ —

أما القول الرابع وهو القائل بنسبتها إلى الصوفانة وهى بقلة زغباء قصيرة ـ فيعللونه بقولهم « إنهم نسبوا اليها لاجترائهم بنبات الصحراء » ويقول الأصفهانى فى مفرداته «قيل إنه — أى الصوفى — منسوب إلى الصوفان الذى هو نبت لاقتصادهم واقتصارهم فى الطعم على ما يجرى مجرى الصوفان فى قلة الغناء فى الغذاء »

وهذا خطأ من ناحيتين أيضاً : ناحية دينية وأخرى لغوية . فأما تلك الناحية الدينية التى يؤاخذون عليها فهى اقتصارهم على مايجرى مجرى هذا النبت فى الطعام ، فأن فى هذا مخالفة لقوله تعالى فى محكم آيه « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون» وفى قوله تعالى «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق» ثم يقول بعد ذلك «قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والأثم والبغى بغير حق» ويقول أيضاً « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض» وقال رسول الله «لأن يترك أحدكم أولاده أغنياء خير من أن يتركهم فقراء يتكففون »

كل ذلك شاهد على أن الاسلام دين جد وعمل ،لاخمول وكسل ،وعلى أن الأسلام لم يمنعنا التمتع بملذات الحياة المشروعة أو الاستفادة منها وبكل مافى كائنات الله تعالى من بدائع وخيرات ، وأرزاق وثمرات . إن ديننا هذا شأنه محال أن يرتضى أولئك الذين ينخرون فى عظامه نخر السوس فى الجسد بتلك الأسرائيليات أو هاتيك الزهديات المبالغ فيها كل المبالغة . وليس الزهد زهداً إلا فيما يملك الانسان لا فيما يحرم منه . فان الأسلام لم يحرمنا نصيبنا من الدنيا بل إنا لنعرف ما جال فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم وقول الله تعالى على لسان نبيه « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة » فمثل هذا الزهد المبالغ فيه لم يأت به الأسلام مطلقاً ولم يأمر به الا فى حدود لا إلى الافراط ولا إلى التفريط وذلك ليعد معتنقيه للفوز فى هذه الحياة كما أعدهم للفوز فى حياة الأبد وسيكون لنا فى هذا الزهد كلام كثير ليس هذا مجاله الآن

يقيت الناحية اللغوية وهذه خطأ أيضاً والا فلو أن النسبة صحيحة لقيل « صوفانى » لا « صوفى » . وقد أنكر هذا الرأى كثيرون فى مقدمهم العلامة الحافظ ابن الجوزى

أضف الى ما تقدم أن هذا الرأى لا وزن له ولا اعتبار لعدم قيمته ووجاهته فلننتقل الى القول الخامس

٥

أما القول الخامس وهو القائل باشتقاقها من « صوفة القفا » وهى الشعرات النابتة فى مؤخرة الرأس ، فيعللونه بقولهم « إن الصوفى عطف به الى الحق وصرف عن الخلق » وقد أورد هذا الرأى الحافظ ابن الجوزى فى كتابه « نقد العلم والعلماء » . وهذا الوجه خطأ أيضاً لانعدام القياس الفعلى المعروف

— ٦ —

أما القول السادس وهو القائل بنسبتها الى صوفة بن مر بن إد بن طابخة فقد أورده صاحب كتاب « جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين » وصاحب « مجموعة الرسائل والمسائل » وقيل سمى صوفه لأن أمه ما كان يعيش لها ولد فنذرت لئن عاش لتعلقن فى رأسه صوفة ولتجعلنه ربيط الكعبة يخدمها . وكان الحج وإجازة الناس من عرفة الى منا ومن منا الى مكة لصوفة ، ولم تزل الاجازة الى عقبه حتى أخذتها عدوان ، فلم تزل فى عدوان حتى أخذتها قريش . والى بنى صوفة ينسب النساك ، وذلك لأنهم أول من انفرد بخدمة الله تعالى عند بيته الحرام . وثمة روايات مختلفة عديدة عن تاريخ آل صوفة أو آل صوفان أو آل صفوان على حد قول صاحب الأساس ، ضربنا صفحاً عنها لضيق المجال . ويقول صاحب الأساس « لعل الصوفية نسبوا اليهم تشبهاً بهم فى النسك والتعبد » وسواء لدينا أصحت هذه الروايات التى ذكرناها أم لم تصح ، فان النسبة الى قوم فى الجاهلية لا وجود لهم فى الأسلام خطأ محض ، وذلك لأن النسبة الى الاسلام كانت فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم بلفظى مسلم أومؤمن ، ولايختلف اثنان فى أفضلية هذه على سابقتها . ولقد أفتى الأمام ابن تيمية بتكفير من يقول بنسبتها الى بنى صوفة والفتوى بنصها وفصها موجودة فى « مجموعة الرسائل والمسائل ص ٢٢١ طبع المنار » فارجع اليها إن شئت .

— ٧ —

أما القول السابع وهو القائل بنسبتها الى أهل الصفة فذلك لأنها على حد قول بعضهم اسم من أسماء النسب ، كالقرش والمدنى وغيرذلك ، ونحن نحكم بخطىء هذا القول

لأنه لا يوافق قاعدة النسب والا قيل «صفية» لا «صوفية» وقد ذكر هذا الرأى ابن خلدون فى مقدمته وابن تيمية فى كتابه «المفاضلة بين الصوفية والفقراء». وأما أهل الصفة فكانوا من فقراء المهاجرين يتصفون بصفات صوفة بن مر بن إد بن طابخة المتقدم الذكر وقد كانوا يفدون على رسول الله «ص» وليس لهم أهل ولا مال فبنيت لهم صفة فى مؤخر مسجد النبى بالمدينة ليأوى اليها من ليس لهم مكان، ولم يجتمعوا فى وقت واحد إذ تارة يكونون عشرة أوأقل وتارة عشرين أو ثلاثين وأخرى ستين أو سبعين، وجملتهم لم تزد على الأربعمائة، قعدوا بالمسجد لضرورة وأكلوا من الصدقة لضرورة فلما انتشر الأسلام فى الأرض وفتح المسلمون الأمصار استغنوا عن تلك الحال وخرجوا وفى رواية أخرى بل طردهم سيدنا عمر بن الخطاب قائلا لهم «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وانما الله يرزق الناس بعضهم من بعض» مستشهداً بقوله تعالى «فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون»

— ٨ —

أما القول الثامن وهو القائل باشتقاقها من الصوف فأن أغلب المتصوفة يعتمدون عليه ويتحمسون له تحمساشديدا، ويعللونه بقول أحدمشايخهم «الصوفى كالخرقة الملقاة والصوفة المرمية التى لاتدبير لها» ويدعون فوق ذلك أنهم مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس فى لبس فاخر الثياب إلى الصوف وهذا ماقاله ابن خلدون فى مقدمته. على أن هذا الرأى خطأ أيضاً، وذلك لثلاثة أمور (أولا) لأنهم يقيمون الكلمة على غير قياس فعلى معروف، حتى أن صاحب التاج ذهب إلى القول بأنها صائفة (ثانيا) انهم لم يختصوا بلبس الصوف بل تقدمهم فى لبسه اتباع موسى وعيسى عليهما السلام. وذلك من قبل أن يأتى الأسلام، وفى هذا تشبه بغير نبى الأمه ومن تشبه بقوم فهو منهم (ثالثا). لأنه مخالف لما جاء عن النبى (ص) والصحابة والتابعين، إذ أن الصوف لم يكن لباس السلف من الأمة لأنه يتضمن ادعاء الفقر، وقد أمرنا الله بستره، ولأن فيه إشهاراً للزهد وقد أمرنا الله بأن نظهر نعمته علينا

«روى أبو الشيخ الأصفهانى بأسناده عن محمد بن سيرين أنه قال إن قوما يفضلون لباس

الصوف فقال إن قوماً يتخيرون الصوف يقولون انهم يتشبهون بالمسيح بن مريم وهدى نبينا أحب الينا » . وقال محمد بن محمد بن على الكتانى لأصحاب المرقعات الذين يلبسون خرقة الصوف « إخوانى إن كان لباسكم موافقا لسرائركم ، لقد أحببتم أن يطلع الناس عليها ، وإن كانت مخالفة لسرائركم فقد هلكتم ورب الكعبة » وقال أبو عبيده محمد بن عبد الخالق الدينورى لبعض أصحابه «لا يعجبنك ماترى من هذة الابسة الظاهرة عليهم فما زينوا الظاهر إلا بعد أن خربوا الباطن » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لبس ثوب شهرة أعرض الله عنه حتى يضع » وفى حديث آخر «البسوا الثياب البيض فأنها أطيب وأطهر وكفنوا فيها موتاكم» وعن أبى هريرة وزيد بن ثابت رضى الله عنهما أن النبى نهى عن الشهرتين فقيل يارسول الله وما الشهرتان ؟ فقال رقة الثياب وغلاظتها ، ولينها وخشونتها ، وطولها وقصرها ، ولكن سداد بين ذلك واقتصاد ، وعن أنس عن رسول الله (ص) أنه قال « من لبس الصوف ليعرفه الناس كان حقا على الله عز وجل أن يكسوه ثوبا من جرب حتى تتساقط عروقه »

والأحاديث كثيرة جدا فى هذا الباب ومن شاء فليرجع اليها فى كتاب "المناوى" أو أسباب ورود الحديث "أو تلبيس ابليس لابن الجوزى" . وأرى قبل اختتام هذا الرأى أن أروح عن نفس القارىء بالرواية الآتيه فقد قال النضر بن شميل لبعض الصوفية « أتبيع جبة الصوف ؟ فقال إذا باع الصياد شبكته فبأى شىء يصطاد ؟ »

— ٩ —

أما القول التاسع وهو القائل بأنها أخذت من كلة « سوف » اليونانية فلم أر من ذكره مطلقا غير الفيلسوف العربى أبى الريحان محمد بن أحمد المعروف بالبيرونى المتوفى فى عشر الثلاثين والأربعمائه فى كتابه « تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » طبع ليدن سنة ١٨٨٧ م فى باب (أصحاب الكرامات) حيث قال « إن قدماء اليونانيين قبل ظهور الحكمة فيهم بالسبعة المسمين أساطين الحكمة وتهذيب الفلسفة عندهم ، كانوا على مثل مقالة الهند وكان فيهم من يرى أن الأشياء كلها شىء واحد « وحدة الوجود» ثم من قائل فى ذلك بالكمون ، ومن قائل بالقوة وأن الانسان مثلا لم ينفصل عن الحجر والجماد الا بالقرب من العلة الأولى فقط لاستغنائها فيه وحاجة غيرها اليها . وان ماهو مفتقر فى الوجود الى غيره

فوجوده كالخيال غير حق والحق هو الواحد الأول فقط . وكانت هذه الآراء آراء السوفية أى الحكماء فأن سوف باليونانية معناها الحكمة . وبها سمى الفيلسوف أى محب الحكمة . ولما ذهب قوم فى الأسلام الى قريب من رأيهم سموا بأنفسهم . ولم يعرف اللقب بعضهم فنسبهم بالمتوكل الى الصفة وأنهم أصحابها . الخ "

هذا ماقاله العلامة البيرونى . وهو الصحيح من بين الأقوال جميعا واعتقد أن واحدا ممن تقدم ذكرهم لم يوفق الى أصل الكلمة توفيق أبى الريحان . وثابت أن الكلمة مشتقة من كلمتين يونانيتين تكلمنا عنهما فى الجزء الأول من هذه المجلة .

على أنه يمكنك مراجعة شرح هاتين الكلمتين فى مقدمة ابن خلدون وفى دائرة المعارف للبستانى ومحاضرات الفلسفة العامة للكونت دى جلارزا وغير ذلك من المصادر والمظان

ونحن نقرر بأن هذا الرأى هو أصح الآراء وأن الكلمة يونانية الأصل والمنبت معتمدين فى هذا على الأسباب التى تقدم ذكرها ، وقد ذهب هذا المذهب الاستاذ فون هامر فى دائرة المعارف الأسلامية . والاستاذ براون فى كتابه « تاريخ الفرس الأدبى » وليس هذان فقط بل وأوردها الأستاذ نيكلسون فى كتابه « مذكرات فى التصوف » وأخذ بها الأستاذ لطفى جمعه فى كتابه « تاريخ فلاسفة الأسلام » عند الكلام عن محيى الدين بن عربى فقال « عندنا ولو كره المكابرون أنها من كلمة « ثيوصوفيا » اليونانية كما تقدم ومعناها الحكمة الألهية » وأخذ الاستاذ العقاد بهذا الرأى أيضاً فى كتابه « مطالعات فى الكتب والحياة » وما تزال الكلمة معروفة بلفظها فى اللغات الافرنجية بلفظ (Theosophy)

فيظهر لنا من هذا كله أن الكلمة بعيدة عن العربيـة ودخيلة عليها من جهة أخرى . وقد يعترضنا معترض فيقول . ولكن الكلمة صوفى وليست سوفى . فنرد على هذا الاعتراض بأن حرف الصاد لايوجد فى اليونانية أضف إلى هذا أن الحرفين يتعادلان فى كثير من المواقع العربية

وقد ورد فى مفردات الراغب الأصفهانى قوله « سطر وصطر واحد » لا فرق بينهما هذا آخر ماوقفنا عليه وهو الحق على مانعتقد والله الهادى الى سواء السبيل ؟

عبد العزيز مصطفى الاسلامبولى